

المقطف

الجزء السابع من المجلد الثامن والعشرين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣ - الموافق ٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢١

الملك وحقوق الملوك

وحادثة السرب

لم نزل للكلام على حادثة السرب تمهيداً افضل من فصل كتبه حضرة المحامي الفاضل داود بك عمون ونشرناه في المقطف على اثر هذه الحادثة قال فيه :

ما برح الخلاف قائماً منذ القدم بين الملوك والشعوب على طبيعة الملك وحقوق الملوك يدعي الاولون ان الملك حق الهي وانه وديعة في ايديهم من الخالق لا يحاسبون عنه الا امامة وليس للبشر عليهم مراقبة ولا محاسبة اساءوا في استعمال سلطتهم ام احسنوا وان طاعتهم امر واجب محتم والانتقاض طيبهم اثم فظيع محرم

والشعوب تعتقد ان الملك اناية من الجمهور لشخص معين بشروط معلومة يجوز للجمهور مناقشته الحساب عن كيفية تاديتو لها وعزله منها وعقابه اذا لم يحسن القيام بها او اساء استعمالها ولم تنفرد ملوك الغرب بهذه الدعوى بل ادعاها ايضاً ملوك الشرق وكانت منتشرة عند العرب في الجاهلية وقد عرضت هذه العقيدة لكليب المشهور فلم يتعرض لحل الخلاف حلاً قانونياً بل ذكر المذهبين وقتل الملك وتركنا نشوق الى معرفة رايه فقال
ان يكن قلنا الملوك حراماً او حلالاً فقد قلنا ليداً

ثم جاء الاسلام بالخلافة الانتخابية والبيعة الجمهورية ففضى على مذهب القائلين بقولم الى ان انتهى عهد الخلفاء الراشدين

اما اليوم وقد تفرقت العقول وارثقت النفوس فلم يبق لهذا المذهب انصار الا القوة والزجة في بعض الممالك الشرقية او المتصلة بالشرق كالصين وايران وروسيا وحسبك دليلاً على ذلك

ان اعظم الدول مدينة وحضارة فرنسا وانكثرا قد حاكت كل منها احد ملوكها وتفذتا عليها حكم الاعدام ولم يفتنهما حقها المزعوم قليلاً . وقد اضطر الملوك بعد الثورة الفرنسية مرضاة شعورهم ان يتقيدوا بقوانين ونظامات تعرف بالدستور او القانون الاساسي تخول للشعب بواسطة نوابه حق التشريع وادارة الاحكام بمفرد او بالاشتراك مع الملك ويتعهد كل من الملك والشعب باحترام ذلك الدستور وبتسم الملك بشخصه والشعب بلسان نوابه ميمناً مغلظة على ذلك . ومملكة السرب من الممالك ذوات الدستور الا ان ملكها الشاب لم يزل على ما يظهر من رأي القائلين بالذهب الاول وهذا من الغرابة بكان فانه اذا جاز لسليل البوربون ان يعتبر شخصاً فوق عامة البشر وحقه الهياً لتتقدم عهديته بالملك الرفيع والشرف الاثيل فما رأيك في هذا الاعتقاد عند سليل راعي الخنازير

فالملك اسكندر اوبريوفتش لم ينظر الى مصلحة شعبه في استعمال حقوقه الشخصية كافترايم بامرأة عاقر من بيت وضع بدلاً من ان يتزوج فتاة من بنات الملوك فيكتسب لبلاد حليفاً ينقما عند الحاجة وورثاً يقيها اخطار الاضطراب والحرب الاهلية عند انتخاب خلف له فتغيرت بها بذلك قلوب رعيتيه عليه ولم يقف عند هذا الحد بل انه غدر بعهده لامتة وحث يمينه لها وتعدى على حقوقها بايقانه الدستور في شهر ابريل الماضي ريثما قضى اوطاره الاستبدادية ثم اعاده كان الدستور ملكه يعطيه اذا رضي ويسترده اذا غضب

فيتضح مما تقدم انه رحمة الله استوجب المؤاخذه واستحق المحاكمة

بني اذا ان يبحث في كيفية محاكته وايصال القصاص اليه وهنا نسلم بأنه كان يجب محاكته محاكمة قانونية بكل مظاهرها وان الذين قتلوه لم تكن لهم صفة لمد يد الاذى اليه وان الانسانية كانت تقضي بعزله او نفيه ولكن هذا الامر سهل نظرياً اما في الواقع فهو مستحيل اوفي حكم السجيل . اما محاكته بالطرق المتادة فبالدهاة غير ممكنة فاي موظف يرفع الدعوى عليه واي قاض يحاكمه والموظفون والقضاة في يده يوليهم وبعضهم متى شاء . واذا فرضنا وجود قضاة للحكم عليه فهل يرضى بان يساق الى المحاكمة صاعراً وله الحرس والانصار والاعوان فما هي الآ الحرب الاهلية وما تنتج من تعطيل اعمال وقتل رجال وتبنيم اطفال

واما نفيه او سجنه فلا يعودان بفائدة لان الملك يبقى ما عاش سبب خوف وفتنة واطلاق لراحة بلاد لا تهدأ لها حال ولا يظمن لها بال فضلاً عن تداخل الدول في امره واعادته بالقوة الى ملكه فلذلك رأى الثائرون ان اسهل الطرق لتخلص من استبداده اعدامه فاصدموه مختارين بذلك اخف الشرين . والحق يقال انه لم يكن لهم سبيل آخر يسلكونه ليخرجوا من

ذلك المأذوق الأَرْضِ رُضُوخَهُم لِلصَّغَارِ وَأَقَامَتَهُمْ عَلَى الذَّلِّ . نَعَمْ إِنَّا لَا نَبْرِثُهُمْ لِقَتْلِ نَفْسٍ مِنْ غَيْرِ
مِحَاكَةِ قَانُونِيَةٍ مَهْمَا كَانَتِ الْأَحْوَالُ وَلَكِنَّا نَجِدُ هُمْ مَا يَحْتَفِفُ جُرْمَهُمْ بِمُخَالَفَةِ الْمَلِكِ نَفْسَهُ لِلقَوَانِينِ
الَّتِي كَانَ قَدْ أَفْسَمَ أَنَّهُ يَحْتَرِمُهَا فَلَسَانِ حَالِهِمْ يَشْدُو

فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ خِطَةِ أَنْتِ سِرَّتِهَا وَأَوَّلُ رَاضٍ خِطَةٌ مِنْ يَسِيرِهَا
وَالَّذِي نَرَاهُ إِنَّهُ لَا يَدُّ مِنْ مِحَاكَةِ الَّذِينَ قَتَلُوهُ وَإِنْ أَوَّلَ عَمَلٍ لِلْمَلِكِ الْجَدِيدِ سَيَكُونُ إِجْرَاءُ
تِلْكَ الْمِحَاكَةِ وَلَكِنْ سَيَجِدُونَ مِنْ سِوَاهُ تَصْرِفِ الْقَبِيلِ وَبَغْضِ الشَّعْبِ لَهُ مَا يَشْفَعُ فِي ذُنُوبِهِمْ
فَيُجْحَوُهُ أَوْ يَكَادُ

وَفِي هَذَا الْحَادِثِ عِبْرَةٌ لِلْحُكَّامِ نَذِيرٌ مِنْهُمْ إِذَا كَانُوا قَدْ أُعْطُوا قُوَّةً وَجَاهًا وَمَالًا وَأَجْلَالًا
يَسْتَمِدُّونَهَا مِنْ الْهَيْئَةِ الْمَحْكُومَةِ فَاذَلِكَ الْأَمْتَابِلُ حَسَنُ خِدْمَتِهِمْ لَهَا وَجَزَاءُ سَهْرَمِ عَلَيْهَا
لَا لِتَحْكُمُوا مِنْ قَهْرِهَا بِقُوَّتِهَا وَإِذْلَالِهَا بِمَدْمَتِهَا وَقَتْلِهَا بِسِلَاحِهَا . وَهُوَ دَرِشَوِي حَيْثُ قَالَ
إِنْ مَلَكَتِ الرِّقَابُ فَابْغِ رِضَاهَا فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مِضَاهُ
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلرُّؤُوبِ مِنَ الْأَسْرِ فَكَيْفَ الْخِلَاقُ الْعُقْلَانُ انْتَهَى

هَذَا وَمَا كَتَبَ الْكَاتِبُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَطَّلَعَ عَلَى التَّفَاصِيلِ الَّتِي وَرَدَتْ بِمَدْمَتِهِ عَنِ
مُحَاوَلَةِ هَوْلَادِ الْقَتْلَةِ اغْتِيَالِ مَلِكِهِمْ وَزَوْجَتِهِ بِالسَّمِّ وَعَنِ التَّنْفِيلِ بَيْنَهُمَا عَلَى صُورَةِ نَفْسَعْرِ مِنْهَا
الْأَبْدَانِ وَتَدَلُّهُ عَلَى أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْوَحْشِيَّةَ تَغْلِبَتْ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَمُدَّ غَرْضَهُمْ إِعَادَةَ الْمَلِكِ عَنْ سَرِيرِ
الْمَلِكِ وَلَوْ يَقْتُلُهُ بَلِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ وَمِنْ زَوْجَتِهِ بَابَةَ صُورَةَ كَانَتْ وَالْمَعْرَكَةَ الْأَوَّلَةَ لَهُمْ وَلَقَتِيرَمِ مِنْ
الْمُتَوَاطِئِينَ مَعَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَكِيدَةِ لَيْسَ الْإِحْفَافُ بِدَسْتُورِ الْبِلَادِ لِكِي تَزِيدَ سَعَادَتِهَا وَيَمْنَعَنَّ عَنْهَا
الْحَيْفَ بَلِ انْتِزَاعِ مَقَالِيدِ الْأَحْكَامِ مِنْ أَسْرَةِ مَالِكَةٍ وَتَسْلِيمِهَا إِلَى أَسْرَةِ أُخْرَى وَلَا مَزِيَّةَ لِأَسْرَةِ
عَلَى أَسْرَةِ كَأَنَّهُمْ مَأْجُورُونَ لِهَذَا الْمُنْكَرِ فَارْتَكَبُوا فِظِيْعَةَ مِنْ أَكْبَرِ الْفِظَائِعِ قَتَلُوا مَلِكًا وَزَوْجَتَهُ
وَإِخْوَتَهَا وَأَنَامًا أُخْرِينَ حَتَّى لَا يَبْقَى أَمَامَهُمْ أَحَدٌ يَبْطَلُهُمْ بِمَا فَعَلُوا وَخَاوَلُوا تَقْوِيضَ اعْظَمِ رُكْنِ
مِنْ أَرْكَانِ الْعِمْرَانِ قِضَاءً لِأَغْرَاضِ ذَاتِيَّةِ

أَمَّا بِلَادُهُمْ فَكَانَتْ سَائِرَةً فِي سَبِيلِ الْارْتِقَاءِ سِيرًا حَثِيثًا وَلِلْعَائِلَةِ الَّتِي قَرَضُوهَا اغْتِيَالًا فَضَّلَ
كَبِيرُ عَلَيْهَا وَابْضَاحًا لِذَلِكَ نُورِدُ الْفَذْلُوكَةَ التَّالِيَةَ مِنْ تَارِيخِهَا

السَّرْبُ قِطْعَةٌ مِنْ شِبْهِ جَزِيرَةِ الْبَلْقَانِ يَجِدُهَا مِنَ الشَّرْقِ رُومَانِيَا وَالْبَلْغَارُ وَمِنَ الْغَرْبِ بِلَادُ
الْبُوسْنَةِ وَمِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ الْبُخَارِ وَمِنَ الْجَنُوبِ الْبَالِيَا . وَقَدْ هَاجَرَ أَهْلُهَا إِلَيْهَا مِنْ بِلَادِ الْبُخَارِ سَنَةَ ٦٣٨
لِيَلِدُوا وَعَاشَقُوا الدِّينَانَ الْمَسِيحِيَّةَ وَبَقُوا أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ تَحْتَ سُلْطَةِ أَمْرَائِهِمْ . وَحَاوَلَتِ الدَّوْلَةُ الْبِيزَنْطِيَّةُ
الْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتِمَّ لَهَا ذَلِكَ . وَقَوِي شَأْنُهُمْ فِي عَهْدِ أَمِيرِهِمْ أَسْطَفَانَ دُوشَانَ (١٣٣٦) —

١٣٥٦) فإنه استولى على بلغاريا ومكدونيا واليانا وأكثر بلاد البلقان وطمع في انشاء مملكة منيعة لتقاوم مملكة الترك لكنه توفي قبلما استتب له ذلك وخلفه ابنة وكان ضعيف الرأي فاتسعت بلاده وتضعفت احوالها فنصب الاتراك عليها سنة ١٣٨٩ فصارت اباالة من اباالات الدولة العثمانية لكن اهلها بقوا يمتنون انفسهم بالاستقلال وحوولوا ذلك مراراً ولاسيما في عهد اسكندر بك الالباني في اواسط القرن الخامس عشر

ومرت عليهم ثلاثة قرون بعد ذلك والانكشارية يذيقونهم النذل الوانكا حتى انقرضت عيال كثيرة منهم. وسبي منهم في وقت واحد مثل الف نفس يبعوا عبيداً وكان فيياتهم يؤخذون منهم كل سبع سنوات ويربون في الاستانة لينظروا في سلك الانكشارية

وضمّت بلاد السرب الى مملكة النمسا سنة ١٧١٨ ثم ردت الى الدولة العثمانية سنة ١٧٣٩ واخيراً عيل صبر السريين فهضوا نهضة واحدة سنة ١٨٠٤ بقيادة رجل باسل اسمه قوه جورج وهو من مقتني الخنازير فطرد الانكشارية من البلاد واستولى على بلغراد وغيرها من الحصون . ولما اُضيفت معاهدة بخارست بين الدولة العلية والروس جاء فيها ان السرب تستقل استقلالاً ادارياً وتقيم حامية عثمانية في كل حصونها . لكن الجنود العثمانية عادت فدوخت البلاد كلها فهرب قوه جورج الى بلاد النمسا وثار السريون ثانية سنة ١٨١٥ واخثاروا لهم زعيماً اسمه ميلوش ابرونوتش وهو من الرعاة ايضاً فنقلب على الجنود العثمانية حتى لم يبق منها في البلاد الا حامية الحصون . وظل ميلوش هذا زعيماً لاهالي السرب في طلب الاستقلال وقتل مناظره قوه جورج ونودي به حاكماً على البلاد واعترفت به الدولة العلية اميراً عليها سنة معاهدة بخارست وحصرت الامارة في نسله لكنه كان مستبداً فاضطروه شعبه الى التنازل لابنه ميلان سنة ١٨٣٩ وتوفي ميلان هذا تلك السنة فخلفه اخوه ميخائيل ونقوى حزب الاسكندر ابن قوه جورج فطرد ميخائيل واقامه اميراً على السرب واعتمد ميخائيل على الباب العالي وحكومة النمسا بدلاً من الاعتماد على روسيا وكان عاجزاً عن ادارة الاحكام فكثرت مبعوضه واضطروه الى التنازل سنة ١٨٥٩ واعادوا ميلوش الاول من منفاه ونصبوه اميراً عليهم وتوفي بعد سنتين فخلفه ابنه ميخائيل واخذت البلاد تغلج في ايامه فتمدت البغضاء من بين احزابها وساد النظام والقانون وبثت في الناس حياة جديدة فاننظمت الجندية وسارت البلاد في مراقي الفلاح وخرجت آخرا حامية تركية منها ١٨٦٧ . وقُتل الامير ميخائيل في السنة الثانية قتله اناس من حزب قوه جورج فخلفه ميلان الرابع وفي ايامه نشبت الحرب بين الترك والروس ونالت السرب استقلالها التام واضيفت اليها ثلاثة اقصية ونودي بالامير ميلان ملكاً عليها في السادس من

شهر مارس سنة ١٨٨٢ ثم تنازل عن الملك لابنوه اسكندر سنة ١٨٨٩ وتوفي في ١١ فبراير سنة ١٩٠١ اما ابنة فكان عمره ١٣ سنة لما تنازل له ابوه فعين له الاوصياء الى ان يبلغ من الرشد لكنه تبض على ازمة الملك في ١٣ ابريل سنة ١٨٩٣ وعمره ١٧ سنة واقترن بالبيدة دراجا ماشين في ٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ وهي اكبر منه بتسع سنوات وكانت من وصالف امه وحكومة السرب دستورية وكان لها دستور اقرت عليه الجمعية العمومية في ٢ يناير سنة ١٨٨٩ فالفاه الملك اسكندر سنة ١٨٩٤ وعاد الى دستورها القديم الموضوع سنة ١٨٦٩ ثم وضع لها دستوراً جديداً في ابريل سنة ١٩٠١ حصر فيه وراثته الملك بتسليمه من الذكور والاثاث . والقوة التنفيذية محصورة في الملك يساعده مجلس النظار والقوة التشريعية في الملك بالاتحاد مع الجمعية العمومية ومجلس الشيوخ

ومساحة بلاد السرب ١٨٦٣٠ ميلاً مربعاً وكان عدد سكانها في آخر سنة ١٩٠١ مليونين و٥٣٦ الفاً وهي زراعية كثيرة الحراج والمراعي وفيها كثير من القطعان والبساتين وكان عدد سكانها مليوناً و٩٠٠ الف نفس سنة ١٨٨٤ فزادوا ٣٠ في المئة في اقل من عشرين سنة وصاحبة بلادهم بلغراد فيها نحو سبعين الف نفس والاهالي مسيحيون على مذهب الكنيسة الارثوذكسية وبينهم نحو عشرة آلاف من الكاثوليك ونحو عشرين الفاً من مذاهب اخرى . وعندهم مدرسة جامعة فيها قسم للفلسفة وقسم للحقوق وقسم للهندسة عدد تلامذتها ٤٦٣ واساتذتها ٦٢ وست عشرة مدرسة عالية فيها نحو ٦٠٠٠ تلميذ منها مدرسة للبنات فيها نحو ٩٠٠ تلميذة ومدارسهم الابتدائية كثيرة فيها اكثر من مئة الف تلميذ . والتعليم الابتدائي اجباري مجاني . وفيها عدا ذلك مدرسة حرية ومدرسة تجارية ومدرسة زراعية ومدرسة لزراع الكروم خاصة ومدرسة علم المساحة هذا عدا المدارس الخاصة وملاجئ الايتام وكان الذين يستطيعون القراءة والكتابة اربعة في المئة فقط من السكان سنة ١٨٢٤ وهم الآن اربعة اضعاف ذلك وايراد الحكومة آخذ في الازدياد المستمر فقد كان ٦٣ مليون فرنك (دينار) سنة ١٨٩٨ فيلج ٧٨ مليون فرنك سنة ١٩٠٠ وصادراتها واورادتها جارية هذا المجري ايضاً وأكثر صادراتها من المواشي والحاصلات الزراعية والجلود والخمور . وكل مقابلة بين حاضرها وماضيها تدل على ارتفاع مستمر فيها والسريون اقرباها الابدان مياون الى الحرب طبعاً يجبون بلادهم ويتنحون بمدحها ويميلون الى الرقص والطرب . شجاعتهم مضيافون كبار المهتم لكنهم حادو الطبع سريعو الغضب ويميلون الى الافراط وهذا يغير اقداسهم على ما ارتكبهوا اخيراً من المنكر ثم ابداءهم دلائل البهجة والسرور